إلى نورك السجين...

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

« من أحلام كوخى البعيد ، أهتز لك بهذه الأنشودة ... لعل فيها سلواناً لعذابك ! »

إنْ رَأَيْتِ النُّورَ مَذْعُو رَ الخُطَى نحوَ المَغِيبِ
وَرَأَيْتِ الطَّيْرَ يَنْعِيـ ـهِ لأَوْرَادِ الكَثِيبِ
وَرَأَيْتِ العِطْرَ نَسْا نَ عَلَى الأَيْكِ الرَّطِيبِ
وَرَأَيْتِ النَّهْرَ سِرًّا لَفَّهُ صَمْتُ الغُيُوبِ
وَرَأَيْتِ الشَّمْسَ لا شَمْـ ـسَ سِوَى طَيْفِ الغُرُوبِ
وَرَأَيْتِ اللَّيْلَ « قِدِّيـ ـسًا » تَهَادَى لِلصَّلِيبِ
غامِضَ الأَسْرَارِ يَحْكِى سِتْرُهُ نَعْشَ الذُّنُوبِ
فانظُرِى مِنْ شُرْفَةِ القَصْـ ـرِ ونادِى : يا حَبِيبِى !
تُشْرِقُ الدُّنيَا وَيَنْدَى جَوُّهَا مِنْ كلِّ طِيبِ

وَتَهِلُّ الفَرْحَةُ الكُبْـ ـرَى عَلَى قَلْبِى الكَئِيبِ
وَيَعُـودُ الأَمَلُ الهَا رِبُ لى عَوْدَ الغَرِيبِ !

* * *

وَإِذَا ما الفَجْرُ أَضْفَى نُورَهُ فَوْقَ التِّلَالِ
وَزَكَتْ « مِئْذَنَةُ » النَّا سِكِ مِنْ عِطْرِ «الهِلَالِ»
وَإِلى اللهِ دَعا الدَّا عِى بِطُهْـرٍ وَابتِهَالِ
وَأَفاقَ الدِّيكُ يَنْعِى خَلْفَ «تابُوتِ» اللَّيالِى
وَانتَشَى الوَادِى مِنَ النُّـ ـورِ وَصَهْبَاءِ الظِّلالِ
وَمَضَى الرَّاعِى إِلى دُنْـ ـيَاهُ فى سَفْحِ الجِبَالِ
وَاحْتَسَى العُصْفُورُ فى الرَّوْ ضِ عَبِيرَ البُرْتُقَالِ
وتَنَاغَى هَزَجُ « النَّحْـ ـلِ » بِأَفْيَاءِ الدَّوَالِى
وَغَدَا النِّيلُ من البَهْـ ـجَةِ قُدْسِىَّ الجَمَالِ ...
فانظُرِى مِنْ شُرْفَةِ القَصْـ ـرِ عَلَى الوَادِى حِيَالِى
تَسْكَرُ الدُّنيَا لِمَرْآ كِ تَسَابِيحُ الجَلالِ
وَتَرَيْنَ السِّحْرَ سِحْرَ الـ ـكَوْنِ يَفْنى فى خَيَالِى
أَنْتَ سِحْرِى وَفُتُونِى وَصَلاتِى وَابتِهَالِى

* * *

لا تَظُنِّى نُورَكَ العُلْـ ـوِىَّ تَفْنِيهِ القُيُودُ
هُوَ كَوْنٌ عَبْقَرِىٌّ لا تُوَاتِيهِ الحُدُودُ
وَهْوَ دُنْيَا مِنْ صَفَاءٍ لا يُسَامِيهَا الوُجُودُ
رَفْرَفٌ لِلخُلْدِ لا يَرْ قَى لِشَطَّيْهِ الخُلُودُ
تَهْرَمُ الدُّنْيَا وَتَبْلَى وَهْوَ شَعْشَاعٌ جَدِيدُ
مَالَهُ مِنْ مُهْجَتِى (م) إِلاَّ التَّنَفِّى وَالسُّجُودُ
فاسْكُبِيهِ فَوْقَ عُمْرٍ كادَ يُبْلِيهِ الصُّدُودُ
أَنا ظَمْآنُ ... وَلَكِنْ خانَ أَيَّامِى الوُرُودُ !
وَعَلَى كَفَّيْكِ أَقْدَا حِى وَخَمْرِى وَالنَّشِيدُ ..
فَدَعِى الأَغْلالَ ما شَا ءَتْ غَدًا يَبْلَى الحَدِيدُ
قَدْ رَعَى اللهُ هَوَانَا وَأَظَلَّتْهُ العُهُودُ
ما الَّذِى يَبْقَى سِوَى أَنْ يُشْرِقَ الفَجْرُ السَّعِيدُ !

— انظر إلى طفلنا يا عزيزي .. كيف يهيم وراء الفراشات هه ... هه ... أتذكر يوم لقيتني لأول مرة على ضفاف البحيرة فى حديقة كهنه ، فجئت إلىّ فصددتُ عنك ... ثم ... يا لله لشد ما تزدحم الصور فى مخيلتى ! ثم جئت إلىّ وكلمتنى كلمات .. وكلمتُك كلمات ... وكان يوم الزفاف بعد أسبوع! ...

أتذكر يوم قلت لى إنك تريد طفلاً يدخل على نفسينا السرور وعلى عيشنا الهناء ! فأضحك ... ها هو ذا طفلنا يلهو ويلعب ، وها هى ذى الحياة تبسم لنا وتضحك ! تعال ياطفلى أقبلك. تعال فأنت الذى أذقتنى طعم الهناء ....

وقام الزوج يطبع على ثغر زوجته قبلة أودعها كل معانى الحب والاخلاص . قالت الوردة :

— الآن فهمت معنى الأمومة ومعنى الزواج

* * *

كانت الشمس ترسل أول شعاع لها فتنبه شجيرات الورد الناعس عندما جاءت إليها الجنية تقبلها قبلة الصباح وتسألها عما بها فتجيبها بصوت هادئ حزين :

— آه ! لن أتغنى بعد اليوم شيئاً ! أريد أن أرجع فتاة لأكون أماً !

صنوح الدبه المنجد